المبحث الثاني

البداوة في معاني المديح

وإذا انتقلنا من مقدّمات المديح ، إلى معاني المديح وصوره ، وجدنا أن قصيدة المدح الأندلسيَّة جاءت على الغرار المشرقيّ البدويّ في التغنّي بالفضائل النفسيَّةِ من مكارم الأخلاقِ ، في الشِّيم والعاداتِ ، وصفات الشجاعةِ والمهابةِ والبذل والعطاء والسماحةِ والنجدةِ وغيرها ، ممَّا ذكر قدامة بن جعفر أصوله الأربعة التي يُمدح بها أو بفروعها ويكون المادح بذلك مصيباً في مدحه وهي ((العقل والشجاعة والعدل والعفَّة)) [1]، وقد كان الشعراءُ في المدح بهذه الفضائل : ((يُعلون من مكانةِ القيم الخلقيَّةِ إعلاءً كبيراً كما أوضحَ الشعراءُ أنَّ تقديرهم لتلك القيم لم يكن بمنأى عن الواقع الذي يعيشون فيه . . .)) [2] ، وقد جرت التقاليدُ العربيَّة البدويَّة في قصيدة المدح على أن يجري في الشعر نعتُ الممدوح بهذه الفضائل ، والإشادة بها ، والمبالغة في إطرائها ، ممَّا قد لا يتوافرُ في الممدوح ، ولكنَّه يصدقُ في المثال الذي يسعى الشعراءُ لأن يكون

---

(١) يقول قدامة : ((إنَّه لما كانت فضائلُ الناس من حيث إنهم أناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل الألباب ، من الاتفاق في ذلك .
إنما هي : العقل والشجاعة ، والعدل والعفَّة ، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً والمادح بغيرها مخطئاً ، وقد يجوز في ذلك للشاعر المدح منها بالبعض والإغراق فيها دون البعض)) .
نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ص٩٦ .

(٢) الإنسان في الشعر الجاهليّ ، دكتور عبد الغني زيتوني ، ص٣٦٨ .

الممدوح ـ ولو بالقول ـ على غراره ، ولذلك وصفَ عمر رضي الله تعالى عنه زهيراً بأنَّه ((لم يكن يمدحُ الرجل إلاّ بما يكون للرجال)) [١] ، ومن الممكن أن تتوافَرَ كثيرٌ من المعاني والفضائلِ النفسيَّة والخُلقيَّة في ممدوحٍ بعينه ، فيشرقُ بذلك الشعر المادح ، ويأتي القول من معدن الممدوح ، وفي ذلك يقول الجاحظ ((وأنفعُ المدائح للمادح وأجداها على الممدوح وأبقاها أثراً وأحسنها ذكراً أن يكون المديح صدقاً ، وللظاهر من حالِ الممدوح موافقاً وبه لائقاً . . .)) [٢].

وقد لا يكون الممدوح على ما نجده في الشعر من مبالغات تشيد بصفاتٍ عظيمة ، فليست جودة المدح منوطةٌ بصدقِهِ من كذبهِ فنحن ((إزاء كلامٍ لا يمتحن بموافقته الواقع أو عدم موافقته له ، ما دام كلاماً ينشئ واقعاً يقنع به . . .)) [٣] ، و ((ليس من الصَّواب اعتبار شعر المديح مجرّد رياء كاذب ، واختلاقٍ محض ، فالواقع أن الشاعر عندما يمدح لا يحاول أن يرسم صورة الممدوح وإنما يحاول أن يرسم صورة شخصيَّةٍ تتمثلُ فيها كلُّ الصفاتِ التي يقّدرها المجتمع . . .)) [٤] ، ولذا فإننا عندما نجد تغنّيًا بالفضائل ومكارمِ

---

(١) يقول قدامة : ((ما أحسن ما قال عمر بن الخطاب في وصف زهير حيث قال : إنه لم يكن يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال ، فإنه في هذا القول إذا فُهم وعمل به منفعة عامة ، وهي العلم بأنه إذا كان الواجب أن لا يمدح الرجال إلاّ بما يكون لهم وفيهم ، فكلنا يجب أن لا يمدح شيء غيره إلاّ بما يكون له وفيه ، وبما يليق به ولا ينافره ...)) . نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ص٩٥ .

(٢) الرسائل ، الرسائل السياسية ، الجاحظ ، دار الهلال ، بيروت ، ط . الثالثة ، ١٩٩٥م، ص٤٩١ .

(٣) جمالية الأنا في شعر الأعشى الكبير ، دكتور حسين الواد ، ص١١٠.

(٤) إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، دكتور صلاح خالص ، دار الثقافة ، بيروت ، ص٨٨ .

الأخلاق ، وعاداتِ العرب الشديدةِ الارتباط بالبداوةِ وأصالتها ، فقد يكون ذلك تغنّيًا بالمثال الذي يتطلّع الشعراءُ الأندلسيُّون لوجودهِ في بيئةٍ كثر بها الأعاجم ، وحفَّ بها الخطر النصرانيّ من كل جانب ، وبخاصَّةٍ في العصور المتأخّرة ، فقد يصدقُ على المدح ما وجدناه في النسيب ، وهو أن المادح يتغنّى بالمثال العربي البدويّ ، ويحاول أن يلبسه ممدوحه ، ممّا كان يظهر في بعض القصائد مستوعباً لقامة الممدوح ، أو فضفاضاً لا يليق به .

وقد اكتسبت قصيدة المديح أهميّة في الشعر العربيّ ، فهي إضافةً لأنَّها قد تخلِّد الشاعر كما قد تخلِّد الممدوح ، فهي أيضاً ذاتِ أهميَّةٍ عظيمةٍ في ذاتها لأنها تُعنى بتأصيل الفضائل الخُلقيَّة ، وإثباتها للممدوح ، وبالتالي إعلاء قيمتها في المجتمع ، ولذا اكتسبت قصيدة المديح أهميَّة أخلاقيَّة ، في وضع مثالٍ للقيم العربيَّة في الشعر قد يُحتذى به .

فمن الشمائل العربيَّة البدويَّة التي يمدح بها ، السَّبقُ لمكارمِ الأخلاق ، وقد جاء هذا المعنى في كثيرٍ من الشعر الأندلسيّ ، ومنه ما داخلته صور البداوة ، في قول ابن درّاج القسطلي من قصيدة مدح[1] :

كسبقكَ في كلِّ علياءَ حتّى ... أضرَّ غبارُكَ بالسَّابقينا
فيا بُعدَ مسراكَ للمدلجينَا ... ويا قربَ مأواكَ للرائحينا

وهو معنى تردّد كثيراً في الشعر الجاهلي ومن ذلك قول عنترة عن نفسه[2] :

وما أبعدتُ حتى ثارَ خلفي ... غبارُ سنابكِ الخيلِ العتاقِ

(١) ديوان ابن درّاج ، ص٣٤٠ .
(٢) ديوان عنترة ، ص١٠٨ .
ومنه أيضاً قول الخنساء في أخيها صخر :
جارى أباه فأقبلا وهما ... يتعاوران مُلاءة الفخر
ديوان الخنساء ، دار الأندلس ، بيروت ، ط . الثامنة ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م ، ص٨١.

فقد كانت الصفاتُ المتناولة في قصيدة المديح في الأندلس ، هي ذاتها المتناولة منذ العصر الجاهليّ وهي في أكثرها مرتبطةٌ بالأخلاقِ البدويَّة العربيَّةِ الأصيلة ، سواءً جاءت الصورة في هذا المدح بدويّة خالصةً ، أو متلبسةً روح البداوةِ في التغني بالفضائل الخلقيَّة ذات الأصول العربيَّة العريقة ، ولكننا هنا سنعرض أمثلة لما يحمله شعر المديح من صورٍ بدويَّةٍ في وصف الفضائل والشمائل العربيَّة ، ومنها ما نَعَتَ به ابن الزَّقَّاق ممدوحه من شجاعةٍ في قصيدةٍ بائيةٍ جاء في أولها بوصفٍ للظعائن والحمول[1] :

ألوتْ بأهلِ اللّوى المهريَّةِ[2] النجـبُ[3]   فـالحيُّ لا أمـمٌ منّـا ولا كثـبُ

وقال مادحاً مستلهماً الصورة البدويَّة للآبار والدِّلاء ، في وصف بسالةِ جيش الممدوح ، وقوَّتِهِ[4] :

المرسـلُ السُّـمرَ أشـطاناً[5] أسـنَّتُها   دلاؤنَا وقلـوبُ الفيلـقِ[6] القُلـبُ[7]

فشبَّه الرماح بالحبال ، والأسنَّةَ بالدِّلاء ، وقلوبَ المهزومين بالآبارِ .

ومن هذه الصُّور أيضاً وصفُ ابن هانئ لجيش ممدوحه بالقوّة والشجاعة ، في قصيدة كثرت البداوة في مطلعها وثنايا مديحها ، قال[8] :

---

(١) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٨٨ .

(٢) المهريَّة : إبل منسوبة إلى مهرة بن حيدان ، أبو قبيلةٍ ، وهم حيٌّ عظيم ، انظر : اللِّسان ، مادة (مهر) .

(٣) النجب : الكريمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجب) .

(٤) ديوان ابن الزَّقاق ، ص٩١ .

(٥) الأشطان : الحبال ، انظر : اللِّسان ، مادة (شطن) .

(٦) الفيلق : الجيش العظيم ، انظر : اللِّسان ، مادة (فلق) .

(٧) القُلب : جمع قليب وهي البئر ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلب) .

(٨) ديوان ابن هانئ ، ص٣٢٠ .

فأركانُــهُ مـــن يـــذبلٍ[1] وعمايــةٍ[2] وأعلامُـــهُ مـــن أعفـــرٍ[3] ويلملـــمِ[4]
إذا أخذتْ أعلامُـــهُ صـــدرَ مقنـــبٍ[5] رأيت شروري[6] تحتَ نخـلٍ مكمَّـمِ[7]
أسفَّ[8] عليه المســكُ والنَّقــعُ مثلمــا أسفَّ نـؤورٌ[9] فـوقَ جلـدٍ مُوشَّـمِ

فذكر من الجبال البدويَّةِ المشهورة يذبل وعماية ، وأعفر ويلملم ، في كناية عن عظمة هذا الجيش وضخامته ، واستعار للفرسان في دروعهم صفة النخل في الأكمام ، وشبَّه النقع بالوشمِ على جلد البدويَّات ، وهو بعد ذلك بأبياتٍ وصف الحربِ ، فذكر الهام ممَّا هو معروفٌ في الموروثِ البدويّ القديم بأنَّه طائرٌ يخرجُ من هام الميتِ يطلبُ بثأره[10] ، فجعله فَراشاً بين الأعداء ، في كنايةٍ عن كثرةِ الموت الذي أوقعه الممدوح بهم ، ووصف اندفاع جيشه فوق ظهور خيولٍ كريمةٍ عتيقة ، كما وصف السَّبايا فوق ظهور الإبل ، فقال[11]:

---

(١) يذبل : اسم جبلٍ بعينه في بلادِ نجد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذبل) .
(٢) عمايةٍ : جبل من جبالِ هذيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (عمي) .
(٣) أعفر : موضع في شعر امرئ القيس :
تذكرت أهلي الصـــالحين وقـــد أتـــت على خَملَـــي منـــا الرّكـــاب وأعفـــرا
انظر : معجم البلدان ، ١/٢٢٢ .
(٤) يلملم : جبل ، وقيل موضع ، وهو ميقات أهل اليمن ، انظر : اللِّسان ، مادة (لمم).
(٥) مقنب : قطعةٌ من الجيش ، أو جماعة من الخيل والفرسان وقيل هي دون المائة ، انظر : اللِّسان ، مادة (قنب).
(٦) شروري : اسم جبل في البادية ، انظر : اللِّسان ، مادة (شري).
(٧) مكمَّم : الكمُّ ، كمّ الطلع ، وأكمام النخلة ما غطى جمارها من السعف والليف والجذع وكل ما أخرجته النخلة فهو ذو أكمام ، انظر : اللِّسان ، مادة (كمم).
(٨) أسفَّ : رشّ وحشا ، من قولهم : أسففت الوشم وهي أن يغرز بإبرة الجلد ، ثم يحشى كحلاً ، وأراد به تغيُّر اللَّون ، ففي الحديث : أتى برجلٍ فقيل إنه سرق فكأنَّما أسفَّ وجه رسول الله ﷺ ، أي تغير وجهه ، انظر : اللِّسان ، مادة (سفف) .
(٩) النؤور : دخان الشحمِ يعالج به الوشم ويحشى به حتى يخضرّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (نور) .
(١٠) انظر : اللِّسان ، مادة (هوم) .
(١١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٢٣ .

ألا إنَّ يوماً هاشميّاً أظلَّهم يطيرُ فراشُ الهامِ عن كلِّ مجثمِ[١]
كيوم يزيدٍ والسَّبايا طريدةٌ على كلِّ موَّارِ[٢] الملاطِ[٣] عثمثمِ[٤]
وقد غصَّت البيداءُ بالعيسِ فوقَها كرائمُ أبناءِ النبيِّ المكرَّمِ
ذعونَ بأبناءِ الضبابِ[٥] وأعوجٍ[٦] فأبكين أبناءَ الجديلِ وشدقمِ[٧]
يشلُّونها[٨] في كلِّ غاربِ دوسرٍ[٩] عليه الولايا[١٠] بالخشَاشِ[١١] مخزَّمِ[١٢]
فما من حريمٍ بعدهَا من تحرُّجٍ ولا هتكُ سترٍ بعدها بمحرَّمِ

فابن هانئ وصف الجيش وعظمته وسباياه ، واستعار لوصف القتال ، من معتقداتِ العرب ذكر الهام والطير ، وأسهب في وصف ضخامةِ الإبل التي تحمل النِّساء ، وسرعة حركتها ، واضطرابها لمناسبة الحرب والقتال .

---

(١) مجثمِ : هو أن يجثم الطير في مكانه ويلزمه ، انظر : اللِّسان ، مادة (جثم) .
(٢) موّار : متحرّك ، مائج مضطرب ، ومارت الناقة في سيرها ماجت ، وأسرعت ، ونشطت ، انظر : اللِّسان ، مادة (مور) .
(٣) الملاط : جانب السنام مما يلي مقدّمه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ملط) .
(٤) عثمثم : بعير قوي طويل شديدٍ فيه غلظ ، انظر : اللِّسان ، مادة (عثم) .
(٥) الضباب : الضبيب ، وهو اسم فرس معروفٍ من خيلِ العرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضبب) .
(٦) أعوج : منسوبة إلى أعوج ، وهو فحلٌ كريم تنسبُ الخيل الكرام إليه ، انظر : اللِّسان ، مادة (عوج) .
(٧) الجديل وشدقم : فحلان من الإبل كانا للنعمان بن المنذر ، انظر : اللِّسان ، مادة (جدل) .
(٨) يشلُّونها : شالت الناقة بذنبها رفعته ، انظر : اللِّسان ، مادة (شول) .
(٩) الدوسر : الجمل الضخم الشديد المجتمع ذو هامةٍ ومناكب ، انظر : اللِّسان ، مادة (دسر) .
(١٠) الولايا : ما ولي الظهرِ من كساء أو غيره ، وقيل الولية التي تحت البرذعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (ولي) .
(١١) الخشاش : ما يدخل في أنف البعير يشدُّ به الزمام، انظر : اللِّسان ، مادة (خشش).
(١٢) المخزَّم : البعير الذي في أنفه خزامة وهي حلقة من شعر تجعل في أحد جانبي منخره ، انظر : اللِّسان ، مادة (خزم) .

وتتخذ الصورة البدويَّة لوصف الجيش عند ابن هانئ مواضع أُخرى في شعره ،ومنها قصيدة مدحٍ رائيةٍ وصف فيها الفرسان بالعيش الخشن وهي من أخلاق وصفات البدو الذين عاشوا في البوادي وتسلّحوا بشجاعتهم وقوَّتهم وتيقظهم للدفاع عن أنفسهم ،وهي صورة مستقرة عبر القصص التاريخي في الوجدان العربي كانوا فيها بعيدين عن حياة الدعةِ والترف ، ممَّا أهلَّهم ليكونوا مثالاً يُحتذى للمدح ، بالقوَّة والبسالة ، والتَّيقُّظ ،وهي الصورة التي أراد بها ابن هانئ وصف جيشٍ حَسُنَ تدريبه للقتال ، ولذلك قال[1] :

قـوم يبيـتُ علـىً الحَشَـايَا غيرهُـم ومبيـتُهم فـوقَ الجيـادِ الضُّـمَّرِ

ووصفهمْ بأنهمِ أسودٌ يقودهم أسد ـ وهو الممدوح ـ [2] :

ويقـوده الليـثُ الغضـنفرُ معلمـاً من كلّ شـثنِ[3] اللّبـدتينِ[4] غضـنفرِ

ثم وصفهم بأنَّهم فتيةٌ ألِفوا البيدَ وشظف العيش الأمر الذي أكسبهم قوَّةً وجسارة ،وإيغالاً منه في وصف شجاعتهم نسبهم إلى (عبقر) وهو وادٍ للجنّ بالبادية ، وجعلهم لا يألفون سوى القفار الموحشة ، وشبَّههم في ذلك بالوحوش التي تولد في الصحراء ، فلا تألف سواها ، فقال[5] :

لا يأكلُ السَّرحانُ[6] شِـلوَ[7] طعينـهم مـمَّـا عليـه مـن القَنَـا المتكسِّـرِ
أنِسُوا بـهـجـرانِ الأنـيسِ كـأنَّهم في عبقـريِّ البيـدِ جُنَّـةُ عبقـرِ[8]

(١) ديوان ابن هانئ ، ص١٦٣ .
(٢) المصدر السَّابق ، ص١٦٢ .
(٣) الشثن : الغليظ ، انظر : اللّسان ، مادة (شثن) .
(٤) اللّبدتين : اللبدة الشعر المجتمع بين كتفي الأسد ، انظر : اللّسان ، مادة (لبد).
(٥) ديوان ابن هانئ ، ص١٦٢ .
(٦) السرحان : الذئب ، انظر : اللّسان ، مادة (سرح) .
(٧) الشلو : بقايا اللحم والجلد ، انظر : اللّسان ، مادة (شلا) .
(٨) عبقر : موضع بالبادية كثير الجنة ، وهي قرية تسكنها الجنُّ فيما زعموا ، فكلَّما رأوا شيئاً فائقاً غريباً ممَّا يصعب عمله ويدق ، أو شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه إليها فقالوا : عبقريٌّ ، انظر : اللّسان ، مادة (عبقر) .

يغشـــونَ بالبيـــدِ القفـــارِ وإنَّمـــا تلـــدُ السَّـــبتى[1] في اليـــابِ المقفـــرِ

ثم أخذ الصُّورة من وصفِ معيشةٍ خشنةٍ إلى وصف معركة ، نعتَ فيها خياماً وقباباً بدويَّة ،في سياق حربٍ جعل فيه هذه الخيام في لبد الأسود كنايةً عن قوَّتهم وشجاعتهم ،وقبابهم تسبح في دماء أعدائهم ، فقال[2] :

وتظـــلُّ تســـبحُ في الـــدِّماء قبـــابُهم فكـــأنـــهـــنَّ ســـفائنٌ في أبحـــرِ

فحياضُهم[3]من كلِّ مهجةِ[4]خـــالعٍ[5] وخيامُهم من كـــل لبـــدةِ[6]قســـورِ[7]

ثم نقل الصُّورة إلى وصف النَّصر بذكر السَّبايا ، فقال[8] :

راحـــوا إلى أُمِّ الرِّئـــال[9]عشـــيَّةً وغدوا إلى ظبيِ الكثيـــبِ الأعفـــرِ[10]

فذكر أنَّهم ذهبوا إلى الحرب على خيولهم ، وعادوا بالسبايا أشباه الظباء .

وقد مدح ابن درَّاج الجيش بالقوة ، والشجاعة ، والنصر ، مكنِّيًا عن ذلك بكثرة السبايا ، وشبههنَّ بالظباء ، وحدّد ابن درّاج مكان وجرة في البادية المشهور بكثرة وحشه ، فقال[11] :

---

(١) السبتى : النمر ، وقيل الأسد ، والسبتى الجريء المقدام ، والياء للإلحاق لا للتأنيث ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبت) .

(٢) ديوان ابن هانئ ، ص١٦٣ .

(٣) حياضهم : الحوض مجتمع الماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (حوض) .

(٤) المهجة : دم القلب ، انظر : اللِّسان ، مادة (مهج) .

(٥) خالعٍ : ناقضٍ للعهد ، انظر : اللِّسان ، مادة (خلع) .

(٦) اللبدة : الشعر المجتمع بين كتفي الأسد وعلى زبرته ، انظر : اللِّسان ، مادة (لبد) .

(٧) القسور : الأسد ، انظر : اللِّسان ، مادة (قسر) .

(٨) ديوان ابن هانئ ، ص١٦٣ .

(٩) أم الرئال : النعامة ، والرأل ، ولد النعام ، ومنه قول امرئ القيس :

(كأن مكان الردف من على رال)

فشبَّه الفرس بالنعامة ، انظر : اللِّسان ، مادة (رأل) .

(١٠) الأعفر من الظباء : الذي تعلو بياضه حمرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عفر) .

(١١) ديوان ابن درّاج ، ص٥١٣ .

مغـــانمُ لا يحـــيطُ بـهـــــنَّ إلاَّ حســـابُ الكـــاتبينَ الحـــافظين
كـــأنَّ الأرضَ جاءتنـــا تـهــــادى بـــوجرةَ[1]أو بشـــعبَيْ رامـــتَينِ[2]

وقد يقابل الشعراءُ في الصُّورة بين وصفِ النصر للممدوح وجيشه ، ووصف الهزيمة التي تلحق بالعدو ، ومن ذلك قصيدةٌ لابن هانئ ، شبَّه فيها وجوه الأعداء بالأثافي السُّفع ، وأراد وصف سوادِ الوجوه لسوءِ المصير ، فقال[3] :

كتائـــبُ شُـــلَّت فابــذعرَّت أُميَّــةٌ فأوجهُهَـــا للخـــزي أثفيـــةٌ[4]سُـــفعُ

كما شبَّه خلوَّ المكان من الأعداء بالطلل الموحش الذي لا يقوم بتحيته على العادة الجاهلية البدويَّة ، قال[5] :

تعفَّـــى فمـــا قلنـــا سُـــقيتَ غمامـــةً ولا أنعم صباحاً بعـــدهم أيُّهـــا الرَّبْـــع

ومن وصفِ الجيشِ وقوَّته بما يعنيه ذلك من وصف قوّة الممدوح ومهابته ، إلى وصف حسن سياسة النَّاس ، والقدرة على قيادتهم ، فمن ذلك تشبيههم بالإبل الصعبة التي لا يروضها إلاَّ رجلٌ قدير وهو الممدوح ، وذلك في قصيدةٍ لابن الخطيب ، زاد فيها وصفه بالسماحةِ والكرم ، من خلال تشبيهه بالمنتجع البدويّ الذي ينبتُ العشبُ والكلأ ، ممَّا يجعله مقصداً للنَّاس ، كما كان المنتجع مقصداً لأهل البادية ، فقال[6] :

---

(١) وجرة : موضع بين مكة والبصرة ، ليس فيها منزلٌ فهي مربٌّ للوحش ، انظر : معجم البلدان ، ٥/٣٦٢ .

(٢) رامتين : تثنية رامة يثنى كما قيل عمايتين ، وهو رامة بعينه ، ورامة منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة ، ومنه إلى إمرة ، وهي آخر بلاد بني تميم ، وقيل رامة هضبة ، وقيل جبل لبني دارم ، ورامة أيضاً من قرى بيت المقدس ، بها مقام إبراهيم الخليل عليه السلام . انظر : معجم البلدان ، ٣/١٨ .

(٣) ديوان ابن هانئ ، ص١٩٠ .

(٤) الأثفية : ما يوضع عليه القدر ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثفا) .

(٥) ديوان ابن هانئ ، ص١٩٠ .

(٦) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٥٣٥ .

ساسَ البلادَ وراضَ من دهمائها[١] إبلاً صعاباً لا تطيقُ خِطَامَا[٢]
إن أمَّهُ العافونَ ينتجعونهُ[٣] يلقاهُم متهلّلاً بسَّامَا

ووصْفُهُ تهلّل الممدوح لسعادته بالعطاء، يشبه قول زهير[٤]:

تراه إذا ماجئتَهُ متهلّلاً كأنَّكَ تعطيهِ الذي أنتَ سائلُه

ويكثر في الشعر الأندلسيّ، وصف حلم الممدوح لأنّ ذلك من الأخلاق التي يحسُن الاتّصاف بها، والحلمُ دليلَ وقارٍ وحكمة، وقوَّة في ضبط النفس، ومغالبة هواها، ولذا مدحوا وافتخروا بهذه الصفة، فقال عنترة[٥]:

وللحلمِ أوقاتٌ وللجهلِ مثلها ولكنَّ أوقاتي إلى الحلمِ أقربُ

ولأن الحلم يعني رزانة العقل وثبات الجأش، جعلوه كرضوى، وهو جبلٌ معروفٌ بالمدينة، فقال ابن سهل[٦]:

حلمٌ حكى رضوى ولكن تحته بأسٌ ذُرى رضوى[٧] يهدُّ وكبكبَا[٨]

---

(١) الدهماء: الجماعة من الناس، والدهماء العدد الكثير، ودهماء الناس جماعتهم وكثرتهم، انظر: اللِّسان، مادة (دهم).
(٢) الخطام: الحبل الذي يقاد به البعير وهو الزمام، انظر: اللِّسان، مادة (خطم).
(٣) ينتجعونه: النجعة عند العرب، المذهب في طلب الكلأ في موضعه والنجعةُ طلبُ الكلأ ومساقط الغيث، انظر: اللِّسان، مادة (نجع).
(٤) ديوان زهير، ص٢١٧.
قال أبو هلال العسكري ((وعندي أن بيت زهيرٍ أجود ما قيل في الشعر القديم))، انظر: ديوان المعاني، ٢٩/١.
(٥) ديوان عنترة، ص٢٦.
(٦) ديوان ابن سهل، ص٦٨.
(٧) رضْوى: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وهو جبلٌ بالمدينةِ منيفٌ ذو شعاب وأودية، به مياه وأشجار كثيرة، انظر: معجم البلدان، ٥١/٣.
(٨) كبكبا: مثل الكبّة، وهي الحملة في الحرب، والدفعة في القتال والجري وشدّته، انظر: اللِّسان، مادة (كبب).

وقد يستعير الشاعر الأندلسيُّ لهذا الحلم ، صورة الاحتباء البدويّة التي قيل فيها : الاحتباءُ حيطان العرب ، لأنَّهم إذا أرادوا أن يستندوا احتبوا ليمنعهم الاحتباء من السقوط ويصير لهم كالجدار[1] ، وقد أُخِذَتْ هذه الصورة البدويّة في الكنايةِ عن الحلم منذ القدم ، وهي الصفة التي يُمدح بها الكرام من العرب لأن فيها معنى الكياسةِ والرّصانة ، وهذا الحلم في السِّلم ، يقابله الإقدام والاندفاع في الحرب ، وقد افتخر الفرزدق بحلم قومه في لاميَّته المشهورة ، فقال[2] :

إنَّ الـــذي سمـــك الســـماءَ بـــنى لنـــا ... بيتـــاً دعائمـــهُ أعـــزُّ وأطـــولُ

بيتـــاً زرارةُ محتـــبٍ بفنائِـــهِ ... ومجاشـــعٌ وأبـــو الفـــوارسِ نَهْشَـــلُ

يلجـــونَ بيـــتَ مجاشـــعٍ وإذا احتبَـــوا ... برزوا كـــأنَّهم الجبـــالُ الـــمُـــثَّـــلُ

فشبَّههم بالجبال إذا احتبوا ، وفي مثل هذا التشبيه يقول ابن الزَّقّاق[3]:

إذا احتبَـــوا فالجبَـــالُ الشـــمُّ راســـخةٌ ... وإن حبُوا فالغمـــامُ الجـــودُ منســـكبُ

فجمع إلى الوصف بالحلم ، الوصف بالكرم ، وهو المعنى الذي ذكره في قصيدة أُخرى ، فقال[4] :

طلـــقُ المحيـــا واليـــدين إذا احـــتبى[5] ... وإذا حبا[6] رحبُ النـــدى والنَّـــادي[7]

---

(١) الاحتباء هو أن يضمّ الإنسان رجليه إلى بطنه بقوبٍ يجمعهما به مع ظهره ويشده عليها ، وفي الحديث (الاحتباء حيطان العرب) أي ليس في البراري حيطان فإذا أرادوا أن يستندوا احتبوا لأن الاحتباء يمنعهم من السقوط ويصير لهم كالجدار ، وفي حديث الأحنف وقيل له في الحرب : أين الحلم؟ قال عند الحبى ، أراد أن الحلم يحسنُ في السلمِ لا في الحرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (حبا) .

(٢) ديوان الفرزدق ، ٢٠٩/٢ .

(٣) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص٩٠

(٤) المصدر السابق ، ص١٤٦ .

(٥) احتبى : اشتمل بثوبه وضم رجليه إلى بطنه ، انظر : اللِّسان ، مادة (حبا) .

(٦) حبا : أعطى بلا منٍّ ولا جزاء ، انظر : اللِّسان ، مادة (حبا) .

(٧) النادي : مجتمع القوم ، وأهل المجلس ، انظر : اللِّسان ، مادة (ندي) .

وفي الوصف بالاحتباء كناية عن الحلم ، يقول ابن زيدون[1] :

همامٌ إذا زانَ النديَّ[2] بحبوةٍ ... ترجَّحَ في أثنائها الحسبُ العدُّ[3]

وأكثر ما مدحت به الشعراء في الأندلس وغيرها منذ القدم الجود والكرم ؛ لأنَّ في هذه الخصلة معاني السماحةِ والبذل ، والرفد ، وإذا مدح الشاعرُ بها ، فهو يخاطب هذه الشمائل في الممدوح ، ويستحثُّها لإجزالِ النَّوالِ والعطاءِ ، ولذا وجد النُّقادُ أن قول جرير[4] :

ألستم خيرَ من ركبَ المطايا ... وأندى العالمين بطونَ راحِ

أمدحَ بيتٍ قالته العرب[5] ، وهو وصفٌ لبالغِ الكرم ، ولذا وجدوه أمدح بيت .

وقد تضمَّن الشعر الأندلسيُّ كثيراً من التشبيهاتِ البدويَّة في وصف الكرم والجود عند الممدوح ، فأخذ ابن هانئ الصورة البدويَّة المستلهمة من الإبل المحمَّلةِ ، وأسنامها ، وهوادجِ النساء عليها ، فشبَّه بها عطايا الممدوح ، وأضاف إلى الصُّورة أنَّ الجمال تنوء بحملها فيثقلُ وطؤها ويتقاربُ خطوها ، فقال[6] :

لك البدراتُ[7] النُّجلُ[8] من كلِّ طلقةٍ[9] ... عروبٌ[10] كوجهِ الضَّاحكِ المتبسِّمِ

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص٣٥٩ .

(٢) النديّ ، هو النادي أي مجلس القوم ، انظر : اللِّسان ، مادة (ندي) .

(٣) العدُّ : الكثير ، انظر : اللِّسان ، مادة (عدد) .

(٤،٥) ديوان المعاني ، أبو هلال العسكري ، ٣١/١ .

(٦) ديوان ابن هانئ ، ص٣١٨ .

(٧) البدرات : جمع بدرة وهو الكيس الذي فيه ألفٌ أو عشرة آلاف ، انظر : اللِّسان ، مادة (بدر) .

(٨) النجل : الكثيرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجل) .

(٩) الطلقة : البشاشة والسماحة ، والسخاء ، انظر : اللِّسان ، مادة (طلق) .

(١٠) العروب : المرأة الضحاكة المتحببة إلى زوجها المظهرة له ذلك ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرب) .

كأسنمةِ الآبالِ أو كحدوجها فمن زاهقٍ[1] عن نِسعةٍ[2] ومزمَّمِ[3]
متى يتشذَّرْ[4] تحتها العُودُ[5] يتَّئِدْ[6] وإن يتدافعَ تحتها الزَّولُ[7] يَدرِمُ[8]

ويلفتنا في الصُّورة كيف قرن العطاء، بالسماحةِ والبشاشةِ وهو من صلب المعنى البدوي القديم الذي يقرن العطاء بانشراح الصدر به، وذلك عندما جعل الإبل عروباً وأشبع صفة العروب فذكر الضحك والابتسام، ولم يكتفِ ابن هانئ بوصف عظمة العطايا والهبات وكثرتها، ولكنَّه قارن بين الممدوح وغيره مقارنةً بدويَّة في القرى وإكرام الضيف، وفضَّله على الملوك قبله الذين كانوا يفخرون بإعطاء المحض وقت الشدّة، والنجائبَ من الإبل، فقال[9] :

وكانت ملوكُ الأرضِ تبجحُ[10] بالقرى[11] قرى المحضِ[12] في اللأواءِ[13] غير مُصرَّمِ[14]

---

(١) زاهق : مكتنز سمين، انظر : اللِّسان، مادة (زهق) .

(٢) نسعة : سيرٌ من جلدٍ عريض تشدُّ به الرحال، انظر : اللِّسان، مادة (نسع).

(٣) مزمّم : مشدود بالزمام، انظر : اللِّسان، مادة (زمم) .

(٤) يتشذّر : ينشط ويسرع، انظر : اللِّسان، مادة (شذر) .

(٥) العود : المسنُّ من الإبل، انظر : اللِّسان، مادة (عود) .

(٦) يتّئد : يتمهَّل ويتأنَّى، انظر : اللِّسان، مادة (وأد) .

(٧) الزّول : الخفيف، انظر : اللِّسان، مادة (زول) .

(٨) يدرم : يقابل الخطو من ثقل ما يحمل، انظر : اللِّسان، مادة (درم).

(٩) ديوان ابن هانئ، ص٣١٨ .

(١٠) تبجح : تفخر وتعجب، انظر : اللِّسان، مادة (بجح) .

(١١) القرى : قرى الضيف، أضافَه، انظر : اللِّسان، مادة (قرا) .

(١٢) المحض : اللَّبن الخالص بلا رغوة، ولم يخالطه ماء، انظر : اللِّسان، مادة (محض) .

(١٣) اللأواء : الشدّة والضرّ، انظر : اللِّسان، مادة (لوي).

(١٤) مصرَّم : منقطع، انظر : اللِّسان، مادة (صرم).

وتفخرُ أنْ أعطت نجائبَ[1] صِرمَةً[2] وما أثَّ[3] من بَرْكِ[4] الحُواءِ[5] المصتَّمِ[6]
فقد تهبُ الدُّنيا وأنجمَ سعدِهَا طوالعَ شتَّى من فُرَادى وتوأَمِ

وتستلهم صورة الإبل المثقلة بالحمول ، كثيراً من الشعراء الأندلسيين ، فيتخذونها في وصف الهباتِ والعطايا ، ومنهم ابن زُمْرُك ، يقول[7] :

وبالأمسِ وافتني هباتٌ عظيمةٌ تكلُّ بها ظهرُ المطيِّ وتثقُلُ

وهي الحمول التي كانت تسمَّى في الشعر بالحقائب أيضاً ، من مثل قولِ نصيب بن رباح في مدح سليمان بن عبد الملك[8] :

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهلُهُ ولو سكتُوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ[9]

وقد ضمَّن ابن الخطيب شطر بيتِ نصيب ، في مدحٍ خَتَم به قصيدته ، فقال[10] :

وتثني بعلياكَ الركائبُ في السُّرى ولو سكتوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ

كما نظر أبو بحر التجيبي إلى بيت نصيب أيضاً ، فقال[11] :

---

(١) النجائب : الإبل الكريمة العتيقة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجب) .
(٢) الصرمة : القطعة من الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (صرم) .
(٣) أثَّ : كثر والتفَّ وعظم ، انظر : اللِّسان ، مادة (أثث) .
(٤) البرك : الإبل الكثيرة الباركة ، انظر : اللِّسان ، مادة (برك) .
(٥) الحِواء : اسم المكان الذي يحوي الشيء أي يجمعه ويضمُّه ، انظر : اللِّسان ، مادة (حوا) .
(٦) المصتَّم : العظيم الشَّديد المحكم ، انظر : اللِّسان ، مادة (صتم) .
(٧) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٨٦ .
(٨) ونصيب كان من شعراء بني أميَّة ، انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص٢٣٣ .
(٩) الحقائب : جمع حقيبة ، والحقيبة تكون على عجز البعير وهي الرِّفادة ، انظر : اللِّسان ، مادة (حقب) .
(١٠) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١٢٢/١ .
(١١) ديوان أبو بحر التجيبي ، ص٩٦ .

إلى مثـــلِ لقيـــاكم تُـــزمُّ الرَّكائـــبُ ونحوكم تُحدى القـــلاصُ السَّـــلاهبُ[1]

ونـــوركم يجلُـــو الغياهـــبَ عنـــدما تقيَّـــدُ أبنـــاءَ الســـبيلِ الغياهـــبُ

ويثني عليكَ الرَّكبُ مـــا أنـــتَ أهلُـــهُ وتُـــثني المطايَـــا تحتـــهم والحقائـــبُ

وقد ذكر الحقائب التي تحملها الإبل ، كثيرٌ من الشعراء الأندلسيين ، ومنهم ابن الجنَّان ، الذي لم يتخذها في وصف العطايا والهبات وكثرتها ، وإنما في تحميل سلامه للممدوح ، وجمَّل الصُّورة البدويَّة ، بذكر نجد ، فقال[2] :

وخذِ السَّـــلامَ فإنهـــا حملتـــهُ عـــن نجـــدٍ إليـــكَ وعـــن نســـيمِ صـــباهُ

وسَرَتْ بـــه مـــلأى الحقائـــبِ نفحـــةٌ منها اســـتعارَ المســـكُ طيـــبَ شَـــذاهُ

ومن مستلزمات شيمةِ الكرم في العاداتِ البدويَّة ، أن تُشَبَّ النارُ ليراها الضيفان فينزلوا على أهلها الذين كانوا في العادة من كبار القوم ورجالاتِ القبيلةِ ، وكان التغنِّي بهذه العادة البدويَّة من أكثر المفاخراتِ بين العرب ، وهي النَّار التي رفعها المحلِّق للأعشى فمدحه بها ، وقال[3] :

لعمري لقـــد لاحَـــتْ عيـــون كـــثيرةٌ إلى ضـــوءِ نـــارٍ في يَفَـــاعٍ[4] تحـــرَّقُ

تشـــبُّ لمقـــرورينِ يصـــطليانِها وبـــاتَ علـــى النَّـــارِ النَّـــدى والمحلَّـــقُ

فجعله رفع ناره في مشرفٍ من الأرض ، دلالةً على رغبتِهِ أن تُرى هذه النار من بعيد ، لكرمه وجعل الضيوف كثيرين (عيونٍ كثيرة) ، وزاد بأن جعله حليفَ الندى ورفيقه ، وقد اتخذت هذه العادة البدويَّة رمزيّة في الشعر الأندلسيّ يُدَلُّ بها على الكرم والجود ، وفي ذلك يقول ابن خفاجة مستلهماً بيت الحطيئة الذي

---

(١) السَّلاهب : الجسيمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سلهب) .

(٢) ديوان ابن الجنَّان الشاطبي ، ص١٧٠ .

(٣) ديوان الأعشى ، ص٢٣٦ .

(٤) اليفاع : المشرف من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (يفع) .

قيل أيضاً أنه أمدح بيتٍ قالته العرب[1] :

مــتى تأتِــهِ تعشــو إلى ضــوءِ نــاره تجدْ خــيرَ نــارٍ عنــدها خــيرُ موقــدِ

فقال ابن خفاجة[2] :

ولله درُّ أخــــــــا ســــــــؤددِ رسَـــا هضــبةً أو ســـرى كوكبـــا
تصـــوبُ السَّـــماءُ إذا مـــا حَبَـــا ويمثـــلُ رَضـــوى إذا مـــا احْتَبَـــى
وتغشُـــو الضُّـــيوفُ إلى نـــارِهِ فتلقَـــى هنـــاكَ ألا مرحبَـــا

فأضاف لصورة النَّار البدويَّة ، التي توقد للضيفانِ في البوادي ، وأرادَ بها كرمه ، صورةَ المطر المنهمر الذي شبه جوده به ، وزاد بأن وصف حلمه ، فجاء بصورةِ الاحتباءِ البدويِّة ، إضافةً للتشبيه بالجبل ، وقوله (ألا مرحبا) فيه دلالةٌ على طيب النفسِ بالعطاء وهو ما يوصف به الكرام عادةً .

وفي قصيدةٍ أُخرى وصف ابن خفاجة فتياناً بالسماحةِ والندى فجاء بصورة النَّار الموقدة في الفيافي ، قال[3] :

ترى بـــهـــم مـــن نضـــرةٍ في سماحـــةٍ طلـــوعَ بـــدورٍ في ارتجـــاجِ بحـــورِ
وتعشُـــو إلى نـــارٍ بـــهـــم في مفـــازةٍ ذكـــاءَ[4] قلـــوبٍ في اتِّســـاعِ صـــدورِ

وهكذا نجد ؛ أنَّ قصيدةَ المديح في الأندلس ، تستلهم من صور البداوة في مقدِّماتها من نسيبٍ أو رحلةٍ أو طلل ، كما أنَّ الشَّاعـر الأندلسيّ قـد يتبدَّى أكثر ، ويسعَى إلى التقليديَّة فيجمع عناصرَ متعدِّدة ، عدَّها بعضُ النُّقاد كابن

---

(١) ديوان المعاني ، العسكري ، ١/٤٣ .
يقول العسكري : وكان بيتُ الأعشى تشبّ لمقرورين . . . يستحسن حتَّى قال الحطيئة متى تأته تعشو ، على أن قول الأعشى وبات على النَّار الندى والملحق ، من أجود الكلام وأبلغه ، والمحلق الممدوح ، انظر : ديوان المعاني ، ١/٤٤ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص١١٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص١٨٣ .
(٤) الذكاء : سرعة الفطنة وحدَّة الفؤاد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذكا) .

قتيبة طريقة لبناء قصيدة المدح ، وكان هذا النَّهج التقليدي القديم ، البدويّ النزعة يكثر في مقدِّمات المديح في الشعر الأندلسي نزوعاً من شعرائِهِ للقديم ، واستلهامِ الموروث الذي كان في دواخل الثقافة الأندلسيَّة ونفسيَّات الشعراء ، كما يُعدُّ أيضاً عند بعض الشعراء طريقةً لإثبات البراعة والمقدرة على ترسُّم خطى القدماء البدو ، والإتيان بقصائدَ على الغرارِ القديم .

كما وجدنا أنَّ الصور البدويَّة تأتي أيضاً في معاني المدح ، لأن هذه الصُّور أصبحت قوالب تعبيريَّة واستعاريَّة لم تعد خاصَّة بزمانها أو مكانها ، كما أن الشعراءَ الأندلسيين استلهموا من البداوة في مخاطبةَ الشَّمائل الأعرابيَّة ، والمدح بما كان من تقاليد متوارثة ، ظلَّت تنضحُ بها النفوسُ العربيَّة الكريمة إلى الآن ، وقد كان الشعراء ـ أيضاً ـ في استلهامهم الموروث القديم يثبتون قدرةً على إجادةِ القول الذي فُتنوا به وربُّوا عليه ، ممَّا يجعلهم جديرين بالإعجاب ومستحقّين للعطاء .

* * *